

لدي حلم

بقلم: عمر الدقير

(بمناسبة الذكرى الثامنة والخمسين لاستقلال السودان أخذنا النص أدناه من خطاب مارتن لوثر كنج الشهير، الذي ألقاه يوم 28 أغسطس عام 1963، بعد التصرف فيه وفقاً لمتغيرات الزمان والمكان).

قبل حوالي ستة عقود، وتحديداً في الساعة التاسعة من صباح الأول من يناير عام 1956م، أعلن السيد/ إسماعيل الأزهري ميلاد جمهورية السودان الديمقراطية المُستقلة، متعهداً باسم النخبة السياسية: "بحماية الاستقلال وصيانة الحرية وطرح المخاوف وعدم الثقة، واقتحام المستقبل أمةً واحدةً متماسكةً كالبنيان المرصوص لإنجاز النهضة الشاملة".

ولكن، بعد حوالي ستة عقود، ها نحن كأننا لم نخطو خطوةً واحدةً للأمام، بل ظللنا في كلِّ عهود الحكم الوطني نُردَل ونترجع القهقري كنتيجة طبيعية لبؤس خيارات النخبة السياسية وفشلها، حتى انتهينا إلى أكثر العهود بؤساً وفشلاً .. أبهظنا بأزمات مأساوية يأخذ بعضها برقاب بعض في فضاءات السياسة والاقتصاد والمجتمع.

فالجنود الأجانب الذين أجلبناهم من أرضنا بإرادة وطنية، عادوا أكثر عدداً وعتاداً بإرادة أممية .. والحرية التي بُشّرنا بها لم تتجاوز طفولتها المضحكة، حيث عادت القيود في الأرجل والسلاسل في الشفاه .. والبنيان المرصوص الذي توهمناه سرعان ما تداعى وتحول إلى تدرر مجتمعي واستدعاءً بغيضٍ للقبليّة والجهوية .. والثقة التي تمنيناها تحوّلت بسياسات الإستعلاء والإقصاء ونقض العهود إلى صراعٍ دام، لم يزل يهلك الحرث والنسل .. والوطن الذي كان غداة الاستقلال موحّداً وجامعاً للتاريخ والجغرافيا، انقسم مثل كعكة رخوة .. أمّا النهضة الشاملة، فقد أبدينا بها تخلفاً وجهلاً ومرضاً وفقراً وكلّ أسباب العناء والشقاء .. بعد حوالي ستة عقود، أضحى النظام السياسي الذي يُطلّنا، حكومة ومعارضة، صديناً مهترناً أدركته الشيخوخة وضربته الأنيميا .. يحكمنا نظامٌ لا يكفُّ عن استدراجنا إلى كهوف الضّباع بعد أن انجذب حتى الغيبوبة إلى أنشودة اليوم الأخير من التاريخ، بينما المعارضة لا تمارس سوى ردود الأقوال والاستغراق في شجونٍ صغرى لا تليق بمن يتعامل مع قضايا الوطن بجدية ومع التاريخ بغير خمول.

إنّ هذا الوقت ليس وقت تعاطي المسكّنات والهروب للأمام بالمرأوغة الثعلبية وتغيير شهاب الدين بأخيه أو أحمد بحاج أحمد، فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الأمر حدّه وتكسّرت كلُّ المشاجب لفرط ما ناءت به من حمولة فقه الاختزال والإنكار والتبرير .. ولم يعد ثمة خيار أمام الحالمةين بأبدية الاقصاء والاحتكار سوى الاعتراف بالعجز والفشل والكفّ عن إحالتهم للابتلاءات والاستهداف الخارجي، فقد نزعنا عواصف الواقع الريش الملون عن طاؤوس "مشروعهم الحضاري" وتركته عارياً مفضوحاً أمام الناظرين.

ورغم كلِّ الصعوبات والاحباطات التي نعيشها إلا أنني، مثل الملايين من أبناء وبنات هذا الوطن، ما زلت أحتفظ بحلمي .. إنه حلمٌ متأصلٌ في نفس كلِّ سوداني حرٍّ شريف، مع إيمانٍ راسخٍ بأنَّ التاريخ سيفرض نفوذه، في لحظةٍ ما، وينتصر للحالمين بالحرية وكلِّ شروطِ الوجود الكريم.

لديَّ حلمٌ بأنه في يومٍ قريبٍ ستنهض هذه الأمة وتعيش المعنى الإنساني الحقيقي بأنَّ كلَّ الناس خلقوا سواسيةً وولدوا أحراراً .. لديَّ حلمٌ بأن يأتي ذلك اليوم الذي يرفع فيه شبابنا رؤوسهم شموخاً واعتزازاً بالانتساب إلى وطن لا يُحكَّم فيه على الفرد بلون بشرته أو ثقافته أو انتمائه القبلي أو توجهه السياسي، إنما بمضمون شخصيته .. ويؤمن لهم تكافؤ الفرص واستيعاب طاقاتهم على أساس الكفاءة والأهلية وليس الولاء والمحسوبية.

لديَّ حلمٌ بأننا سنؤسس دولةً مستنيرةً تشكل بوتقةً ذكيةً لإدارة التنوع وتحويله إلى قوس قزح، بحيث تأتلف الأطياف فيكون الواقع أكثر خصوبة وثراءً وتمتزوج الإضاءات فيكون المشهد أكثر ألماً وبهاءً .. دولة تحمي المرأة من الانتهاكات والطفل من الشرور، وتوفّر الحياة الكريمة لأهلها كافة.

لديَّ حلمٌ بأن تُبنى أحزابنا السياسية على ركائز الديمقراطية والمؤسسية والوضوح الفكري وحيوية المنهج، لمجادلة الواقع بخطابٍ وطنيٍ حدائيٍ مستنير .. وأن تكون لنا منظمات مجتمع مدني ديموقراطية تساهم في الحراك المجتمعي بالانحياز لخيارات السلام والوحدة والديموقراطية والتنمية .. وأن يسند حراك المنظمات السياسية والمدنية منابر إعلامية حرة تتحلّى بالنزاهة والشجاعة وتمارس دورها بالخطاب الواعي المسؤول، بعيداً عن ثقافة التجهيل والتضليل والتغزل في أجنحة السلاحف وعسل الذباب.

لديَّ حلمٌ بأن تتراجع في واقعنا صورة المثقف الذي يخضع للترغيب والترهيب، سواء كان سُلطوياً أو اجتماعياً، ويمتثل لشروطٍ بائسةٍ أو ينكفي على ذاته طلباً لنجاةٍ هي أسوأ من الهلاك .. وأن يتقدّم المثقف الذي يخضع لسلطة المعرفة ويمتثل لشروط الضمير الحي وينحاز للعقلانية والتنوير لشقِّ الدروب الصعبة، كي يمضي الحراك المجتمعي إلى مصبِّ النهضة بدلاً عن الارتكاس أو الدوران الأعمى على طريقة "محلّك سير".

لديَّ حلمٌ بأن يأتي يومٌ تتراجع فيه ثقافة الاقصاء والاستعلاء والاستحواذ والاثرة، لمصلحة الاعتراف بالآخر واحترامه والعطاء المتبادل والإيثار .. وتنحسر الانتهازية والحربائية والذرائعية وسائر مظاهر الخلل القيمي، لمصلحة الفضائل والمكرّمات .. ومن الجذوع المحترقة تنبت أشجارٌ مثمرة لا يُضيرها لو استظلت تحتها بعض الأفاعي، لأنَّ الحفيف حتماً سينتصر على الفحيح.

لديَّ حلمٌ بأن يكون لنا وطنٌ يحلّق بجناحي الحرية والعدالة ويعمّه السلام، حيث تتحرر النفوس من الخوف، وتخلو القلوب من الضغائن، وتتعلم الأذان فن الإصغاء وتقوى العيون على الرؤية الواضحة، وتتوحّد الإرادة ويتفجّر الإبداع في كلِّ الحقول لاستثمار مُمكِنات

النهوض الهاجعة التي يعجُّ بها واقعنا المنجمي.

هذا هو أملنا، بل هذا هو الإيمان الذي نُحوّل به التنافر في أمتنا إلى سيمفونية أخوة رائعة ..
نعمل معاً، ونصلي معاً، ونقاتل معاً، ونذهب إلى السجن للدفاع عن الحرية معاً، مؤمنين
بأننا ولدنا أحراراً ويجب أن نعيش أحراراً.

ولكي يتمّ لنا ذلك، فلنقرع أجراس الحرية في كلِّ مكان .. فلنقرع أجراس الحرية في القرى
والمدائن، ولنقرع أجراس الحرية في المدارس والجامعات، ولنقرع أجراس الحرية في
الشوارع والساحات، ولنقرع أجراس الحرية في السهول والوديان وقمم الجبال .. عندها
سنعجل شروق شمس ذلك اليوم الموعود الذي يقف فيه جميع السودانيين أحراراً ومتساويين
ومتحابين، يُشبكون أيديهم مرددين كلمات إدريس جمّاع:

سأرفعُ رايةَ المجدِ .. وأبني خيراً بُنيانِ
هنا صوتٌ يناديني .. تقدّم أنتَ سوداني
سأمشي رافعاً رأسي .. بأرضِ النبلِ والطُّهرِ
سأجعلُ للعلا زادي .. وأقضي رحلةَ العُمرِ
مضى عهدٌ مضى ليلٌ .. وشقَّ الصُّبحُ أستارا
نصونُ لأرضنا استقلالها .. ونعيشُ أحرارا